راقصة تراقب تحركات الجيش العثماني

خفايا الجاسوسية الإنكليزية في العراق

في خضم معركة سلمان باك التي جرت بين الترك والانكليز في أواخر تشرين الثاني ١٩١٥ وصلت البرقية التالية من نور الدين بيك القائد العام للقوات العثمانية في العراق الى حسام الدين نظمي بيك رئيس مصلحة مقاومة الجاسوسية الانكليزية في العراق وهي تقول بالشفرة ان اموراً مريبة تجري في مقر الفيلق الثالث فان التعليمات التي ارسلتها الى قيادة الفيلق الثالث عن تراجع قواتنا الى سلمان باك وتعليمات الدفاع الواجب اتخاذها لحماية بغداد قد وصلت الى الانكليز وان الافادة التي ادلى بها احد ضباط الانكليز الاسرى وهو من امسكنا به في جوار سلمان باك دلتنا الى ان الانكليز كانوا عارفين بخطوط الدفاع التي اتخذناها ولما كانت هذه المعلومات سرية للغاية وليس في وضع ان يطلع عليها الا من الفيلق الثالث نفسه . او من الاركان الحربية لهذا اعتقد ان الموقف بات كثير الخطورة وان الواجب معرفة ذلك الخائن الذي اتصل بجواسيس الانكليز وافشى لهم هذه الاسباب . وقف حسام الدين بيك حائرا امام هذه المذكرة التي ارسلها اليه القائد العام . وفيما كان هذاالضابط يتخبط باتجاه ما عليه فعله من التدابير لحل المشكلة دخل عليه احد الجنود يقول مولاي في الباب جندي يرغب في المثول بين ايديكم .

حسام الدين نظمي

خليل باشا

نوري الدين بك

الراقصة جلنار

ألم تقل له انني مشغول ؟. بلى ولكنه يقول: ان لديه معلومات على جانب كبير من الخطورة يريد عرضها عليكم .

وما اسمه ؟.

عبد الرسول هادي .

وما كاد حسام الدين يسمع بهذا الاسم حتى هب من مقعده وقال: ليدخل.. ليدخل .. وعبد الرسول احمد هادي احد الفدائيين الذين اوفدهما انور باشا لاغتيال قاضي البصرة وذلك لتأييده للاحتلال الانكليزي للمدينة .. وقد قتله فعلا في بغداد مساء ١٤ كانون الثاني ١٩١٥ . بعد ان تركا علي سريره رقعة كُتب عليها هذا جزاء من يسلم البلاد الى العدو ..

وحسام الدين نظمي بيك الذي كان مطلعا على هذه الامور ما كان ليدور في خلده ان عبد الرسول لايزال في بغداد ولهذا دهش عندما علم انه هو الذي اتى الى مقابلته فاستقبله بكل حفاوة وسأله عن اموره فقال بعد تلك العملية التي قمنا بتنفيذها ارسلنا الى الجبهة وقد اشتركنا انا ورفيقي يوسف الموصلي في المعارك الحربية .. وبعد سقوط الناصرية جرحت ورفيقي يوسف ونقلنا الى بغداد.

وقد اصبحت الآن ضابطا احتياطيا ولذا ادخلت الى مستشفى الضباط وفيه تعرفت باليوزباشي .

شوكت بيك من ضباط اركان الحرب وقد اصيب بالجروح في فخذه في معركة الكوت . وقد رابني امر هذا الضابط لانه ينفق عن سعة في المستشفى منذ ان كان في ازمير فقير الحال ذا عائلة كبيرة ثم لأنني رأيت رجلا غريبا يتردد عليه وقد شاهدت هذا الرجل بعد مراقبتي له يتردد كذلك على احدى الراقصات .

معلومات الموصلي !!

فاجاب حسام الدين:

وما وجه الغرابة في تلك الامور عندما ارتبت في هذه الامور ناديت رفيقي يوسف وارسلته لمراقبة الرجل الغريب وعاد الي ليقول: راقبت الشاب بعد خروجه من المستشفى فرايته يذهب الى محلة الكرادة حيث قرع باب منزل قائم هناك وصعد اليه ولكنه لم يمكث فيه اكثر من عشر دقائق وخرج وتوجه هذه المرة الى النادي العسكري لكنه لم يدخله وانما ظل عند بابه الى الساعة التاسعة مساءً حيث خرج اليه احد الضباط فسارا متجهين الى الميدان وقبل ان يصلا اليه افترقا وتابع الشاب سيره قاطعا جسر بغداد العتيق . الى جانب الكرخ وهناك دخل الى مربع جلس فيه وحده وعند منتصف الليل جاءت اليه احدى الراقصات ومكثت معه مقدار نصف ساعة وكانت الساعة قد بلغت الاولى بعد منتصف الليل عندما انصرفت الراقصة فلحق بها الشاب وكانت هناك عربة بانتظارهما .. فنظرت اليها فاذا بها الضابط نفسه الذي كان برفقة الشاب بعد الغروب فاستدعيت عربة ثانية والتحقت بهم واذا بهم يتوجهون الى الدار الواقعة في الكرادة فمكثوا فيها نصف ساعة وتفرقوا وتوجه الضابط الى منزله والفتاة الى غرفتها في الفندق والشاب عاد ايضا الى هذا المنزل نفسه وقد تبين لي من افادة يوسف الموصلي ان في المنزل رجلا يدعى الشيخ عبد الله والضابط الملازم الاول اورخان افندي والراقصة هي منيرة خان دان الملقبة كالنهار هانم، وهي امراة اصلها من سلانيك .

كفاني خيانة ..

استمع حسام الدين نظمي بيك الى هذه المعلومات بهدوء تام ثم قال (لم ازل بعيدا عن معرفة خطورة هذه المعلومات انك على حق يامولاي لان هذه المعلومات تمهيدية وانا بنفسي لولا الفضول الذي دفعني لذلك لما اهتممت بالأمر ومع هذا يوسف الموصلي يواصل المراقبة كما انني ازددت رغبة في التقرب من اليوزباشي شوكت والحصول على ثقته. في اليوم الثالث جاء ذلك الشاب برفقته شخص آخر مرتديا ثيابا عربية ومرسلا لحيته الا انني رأيت في هيئته مارابني لان ملامحه لاتدل على انه عربي فتظاهرت عندئذ انني نائم وحاولت ان استسرق الحديث من دون جدوى .. لانهما كانا يتكلمان على هذا شيئا من الهمس مقدار ربع ساعة ثم سمعته بعد ذلك يصيح ابدا هذا لم يكن كفاني خيانة فادرت عيني اليهما فرأيت ذلك البدوي يحاول خنقه ثم يعود الى سكونه وهمسه ثم عاد شوكت بيك يقول عليك ان تبتعد عني والا وشيت بك وبنفسي ويظهر ان شوكت بيك اظهر انفعالاً شديدا فاصيب بنوبة قلبية فقمت عندها من فراشي فرايت ذلك البدوي يقدم له قدحا من الماء وما كاد يتناوله حتى هدأ في فراشه من دون ان اهتم بامره لانه كان قد انصرف ولحقه الى الباب لادرس ملامحه بدقة . ولما عدت الى الغرفة اسرعت الى شوكت بيك لأسأله عن الامر فوجدته جثة هامدة فاسرعت ادعو رئيس الاطباء وما كاد يفحصه حتى صاح لقد قتل بالسم . فرجوت منه ان يسكت ويخفي الامه لان في الحادث امورا خطيرة ارتكبها الجواسيس وان لايدع احداً يدخل الغرفة وكنت عالما بوجودك في بغداد بالمهمة التي انتدبت من اجلها فجئتك مسرعا وشوكت لايزال في غرفته .. هيا بنا ..

حيرة .

وتوجه حسام الدين نظمي بيك وعبد الرسول هادي الى المستشفى فاستقبلهما هناك رئيس الاطباء وابلغهما ان الظاهر بأن الرجل مات متسمما بمادة سامة من المواد الهندية فلم يهتم حسام الدين بيك بالمادة التي قتل بها الضابط، بل اراد ان يعرف حقيقة محتويات الغرفة فتشها بدقة ثم تفقد صندوق الضابط القتيل فوجد فيه نسخا كثيرة من الاوامر العسكرية السرية لكن كل هذه الامور لم تهمني ابدا واذا برئيس الاطباء يأتيني ويقول عندما نقلنا جثمان الضابط الى التشريح وجدنا هذه العلبة معلقة على صدره والعلبة المذكورة مصنوعة من الفضة وهي صغيرة الحجم التي اعتاد البعض على حملها ولها غطاء ملتصق بالعلبة ولما فتحها حسام الدين وجد فيها التعليمات الجديدة التي وضعتها القيادة العليا للدفاع عن بغداد ومعها الاوامر التي اصدرتها القيادة العليا في شأن هذه الخطط وبجانبها رقعة صغيرة كتبها شوكت بيك بخط يده وهذا نصها ..

(على من يجد هذه القطعة ولم يجدها الابعد ان اكون جثة هامدة ان يعيدها الى القيادة العليا ويطلعها بان جواسيس الانكليز رغبوا في الحصول عليها وان في المعسكر من يخون)

توقف حسام الدين ومساعده الجديد حائرين اتجاه هذه (المعميات) الجديدة وهي:

اولا: ان هذه الخطط وضعت بعد جرح اليوزباشي شوكت بيك وقد نقل هذا الى المستشفى فمن اين وصلت اليه وما دام يعرف ان هناك جواسيساً يريدون الحصول عليها ، فلماذا لم يخبر القادة عنهم ؟ ولماذا احتفظ بهذه الاوراق مفضلا اخبار القيادة بامرها وبامر الجواسيس الا بعد موته؟

ثانيا : من الذي جاء لمقابلته مع الشخص المجهول ثم فتك به ؟

من هم الخونة ؟

ولكن هذه الاسرار مالبثت ان اخذت تتجلى امام القائد حسام الدين بك بصورة تدريجية. فالمحاورة التي سمعها عبد الرسول بين البدوي المجهول وشوكت بك، والمعلومات التي اوردها له مثلا عن كثرة المال مع الضابط القتيل في حين انه كان فقيرا دلته على ان شوكت كان قد باع نفسه الى الجواسيس وسلمهم كثيرا من اسرار الجيش .

غير انه بعد ان جرح في المعركة الحربية ندم على ما كان منه ولهذا ما كاد يتلقى من مساعده الخائن خرائط الدفاع الجديدة عن بغداد حتى رفض ان يسلمها الى مندوب الجاسوس . وهو نفس الشاب الذي زاره في المستشفى قبل ثلاثة ايام وآثار ريبة عند عبد الرسول هادي فطلب من يوسف الموصلي ملاحقته على ماذكرناه .

ويبدو ان حراجة الموقف الحربي قد رفضت على الانكليز المحاولة ثانية فارسلوا البدوي والشاب في محاولة ثانية مع شوكت بك الذي هددهما بافشاء اسراره وعدم رغبته في متابعة الخيانة .

فخاف هذان ان يفتضح أمرهما فقتله احدهما والإجرام في مثل هذه الأمور سهل ومألوف .

اعترافات الراقصة!!

وعلى هذا لم يبق امام حسام الدين نظمي بك بعد ان وصل باستنتاجاته الى هذا الحد إلا ان يعرف.

اولا: حقيقة هوية القاتل ورفيقه .

ثانيا: علاقة الضابط اورخان والراقصة بالجاسوسية .

ثالثا: الخونة المندسون في الاركان الحربية الذين اشار اليهم الضابط القتيل في مفكرته التي وجدت معه.

على ان يوسف الموصلي مالبث ان حل اللغز الاول اذ جاء الى المستشفى وقال:

- ان من جاء الى المستشفى مع الشاب هو الشيخ عبد الله صاحب المنزل الذي ترصدته في المحلة الكرادة .
- ورفيقه؟
- انه غريب من بغداد ويعرف باسم سيد محمد .
- وما علاقة الراقصة والضابط به.
- لا اعلم .

لقد اصبح مفتاح حل الموقف بيد كلنهار وهذه امراة على قدر كبير من الجمال والجاذبية وعندما القي القبض عليها حاولت الانكار، ولكن حسام الدين بك عرف كيف يدير التحقيق ومالبث ان نبهها الى حقيقة القاء تلك الليلة في منزل الشيخ عبد الله مستخدما في ذلك يوسف الموصلي مما دلها على انه مطّلع على كل الاسرار فقالت:

قد التحقت بمصلحة الجاسوسية الانكليزية منذ شهور عديدة أي منذ الشهر الاول الذي جئت فيه الى بغداد . وكانت مهمتي تنحصر في الاختلاط بالضابط ومعرفة التدابير العسكرية التي يعلمونها . وكانت لدي ،لكوني امراة. طرقاً كثيرة تحملهم على الاباحة بأسرارهم وبذلك خدمت تلك الجاسوسةخدمات كبيرة فتقاضيت بدلا من ذلك مبلغا كبيرا من المال .

وفي اواخر آب الماضي جاءني شاب يقول انه موفد إلي من الشيخ عبد الله وهذا كل ما اعرفه من الجاسوس الانكليزي وطلب مني خطة الدفاع عن الكوت .

وكنت اعلم ان هناك ضابطاً يظهر لي الحب وهو اليوزباشي شوكت بك فاستعملته لي وأخذت منه اسرار الدفاع . وكان شوكت بك قد علم باتصالي برئيس مصلحة الجاسوسية الانكليزية فطلب مقابل ذلك مبلغا من المال وجسدي معا ففاوضت الشيخ عبد الله فقبل ودفع له مئتي ليرة عثمانية ذهبا ثم نقده في خلال عشرة ايام مبالغ اخرى تزيد على هذه القيمة.

الشيخ القاتل

وكانت القيادة العثمانية تسعى في ذلك الوقت الى استمالة العشائر النازلة على ضفة الفرات .

وحاول الجاسوس الذي عرفته باسم (الشيخ عبد الله) ان يحصل على المعلومات بهذا الشأن من الضابط اورخان المسؤول عن شؤون العشائر في الفيلق فعهد لي بتحقيق هذه المهمة واستمالة الضابط المذكور. وفي غضون اسبوع واحد تمكنت من ضم اورخان الى صفوف الشيخ فزوده بكل ما يحتاجه اليه من معلومات عن تلك الامور وهنا سكتت كلنهار او منيرة خاندان عن متابعة حديثها فعاد حسام الدين اليها فاستجوبها وقال: كيف وصلت خطط الدفاع الجديد عن بغداد الى شوكت؟ ان شوكت بيك بعد انتسابه الينا استدعي الى السفر الى الكوت وقد جرح يوم وصوله اليها وجيء به الى بغداد وكان الشيخ عبد الله بحاجة الى خطط الدفاع الجديدة المشار اليها ففاوضني بامرها فجئت الى شوكت اطلبها منه ورفض لكنني اغريته وقلت له ان مساعدك اورخان قد انضم الينا وانه اذا لم ياتني بالخطط رجعت اورخان بشانها فسيخسر هو كل شيء وقد علمت انه ارسل يستدعي في اليوم نفسه اورخان الذي كنت قد فاوضته مساء في الامر واخذت منه خطط الدفاع بعد ان هدده بافشاء السر ولما تأخرت عن الشيخ عبد الله بما يريد من معلومات رويت له من وقائع فاستدعاني اليه مع اورخان وهناك ابلغه الاخير ما كان من تهديد شوكت بيك فوعده بإنقاذه منه واعتماده اياه ان شوكت بيك قد مات.

مات؟

نعم مات قتلا .

الشيخ عبد الله قد قتله .

ومن الشيخ عبد الله؟

لااعرف عنه شيئا .

ومساعديه؟

لا اعرف الا انه يدعى السيد محمد .

اتعتقدين ان الشيخ عبد الله من البدو؟

كلا يظهر لي انه انكليزي برغم اجادته اللغة العربية عند ئذ امرها حسام الدين بيك ان توقع على افادتها ذلك ففعلت دون أي تردد او ممانعة وأعادها الى غرفة التوقيف .

حقيقة الشيخ

انصرف حسام الدين بيك بعد ذلك الى استجواب الموقوفين وكان الشيخ عبد الله على رأسهم فحاول هذا في بادىء الامر ان ينكر امرهم قائلة: انه من عشيرة الحميد التي على شط الغراف بين الحي وقلعة سكر الا ان حسام الدين قادنا الى الزنزانة التي تقبع فيها الراقصة كلنهار . تعرفت عليه في الحال فلم يجد امامه سوى الاعتراف بانه ادكار وود الجاسوس الانكليزي الخطير الذي كان يفلت في كل مرة من اجهزة مكافحة التجسس العثمانية كلما حاولت ان اطبق عليه .

اما الثاني الذي نفسه اسم السيد محمد فيدعى عزت الدليمي وكان من الجنود الذين وقعوا في اسر الانكليز فاتصل به ادكار فاستخدمه والثالث يدعى عجمان المحمد من قبيلة بني ركاب التابعة لمحافظة ذي قار حاليا والرابع فرحان بن احمد من قبيلة البويوسف وهي احد افخاذ عشيرة الازيرج بين الناصرية والشطرة وهذان الاخيران كانا من جواسيس ادكار المثبتين بين القبائل وقد حضرا الى بغداد منذ يومين فقط ليتلقيا تعليماته بشأن هذه القبائل .

عجائب وغرائب

ابلغ حسام الدين بك هذه المعلومات الى نور الدين بك فجاءه جواب يقول : ان الواجب يحتم علينا متابعة التحقيق في هذه القضية الى النهاية ليتمكن من معرفة جميع الاشخاص الذين اشتركوا في هذه الحوادث والقضاء على اعمال الجاسوسية في هذه المنطقة .

فناديت الحراس ولم اجد بينهم من يعرف شيئا عن سر مقتل هذين الجنديين ولا كيفية فرار الجاسوس ثم تفقدت جميع المسجونين فوجدتهم في اماكنهم .

وقد هز هذا حسام الدين بك هزة شديدة فاسرع بنفسه الى السجن فلم يستفد شيئا علاوة على ذكره له مساعدة عندئذ رأى حسام الدين ان يضع حدا لافراد هذه العصبة ويتخلص من تبعة بقاء افرادها تحت ادارته فختم تحقيقاته بأمرهم وإحالتهم الى ديوان حرب بغداد العرفي .

إخطبوط

ويوم انتقل هؤلاء من المعسكر الى السجن العسكري وجدت منيرة خاندان او الراقصة كلنهار جثة هامدة . وتبين انها طلبت شيئا من الطعام من احد خدم المقهى الذي كانت تشتغل فيه فكان ذلك سببا لموتها وقد اعتقل ذلك الخادم وهو رجل مسن يدعى عثمان اغا فقال:

جاءني بدوي وقال لي: انه من عشاق الراقصة ويريد ان يرسل اليها شيئا من الطعام والحلوى الى السجن ودفع لي ريالا مقابل ذلك فذهبت بما اعطاني ودفعته اليها . وقد تبين ان الخادم بريء وان الراقصة ذهبت ضحية الجاسوس فاخلي سبيله.

وفي العاشر من تشرين الثاني ١٩١٥ نشرت جريدة بغداد الرسمية ما ياتي:

نفذ حكم الاعدام في الساعة الخامسة من صباح هذا اليوم بكل من اورخان محمد عزت بن مصطفى الدليمي وعجمان محمد الحمد وفرحان طاهر احمد لثبوت اشتراكهم في اعمال الخيانة العظمى وفي اعمال الجاسوسية للأعداء وقد لقي هؤلاء الاشرار جزاء دناءتهم وخيانتهم .

من اوراق صادق الازدي

الجرداغ

الجرداغ غرفة من الحصران القصبية بواري مثبتة بواسطة (المرادي) وواحدها من المردي ويكون من جذوع اشجار القوع غير السميكة وكان بعض هواة قضاء الليالي الصيف على ساحل دجلة يتفننون فيجعلون حولها سورا من الحصران ذاتها فيكون للغرفة فناء وقد يقيمون مرافق اخرى واولئك هم الذين اعتادو جلب عوائلهم الى جراديغهم مرة في الاسبوع لقضاء بضع ساعات من الليل فيها ثم العودة الى المنازل .

اين كانت تقام ؟

وكانت الجراديغ تقام على ساحلي دجل في الكاظمية والاعظمية يوم كانتا من نواحي مدينة بغداد في جزرة الكرادة الشرقية بعد ان تنحسر عنها المياه الفيضان وهي لاتغرق في ايامنا ثم صارت الجراديغ تنصب على ساحل دجلة في الباب الشرقي قبل ان يتم افتتاح الشارع الذي نعرفه اليوم بشارع اب نواس وكان في اول امره دربا ضيقا متربا تقوم عليه بعض المقاهي البدائية . ولم يكن يمتد الى ما هو ابعد من الارض التي يقوم عليها الان فندق بغداد .

وكانت تقام بعض الجراديغ متفرقة على الجانب الاخر من دجلة كما عرفت بغداد جراديغ خاصة بتعليم الصغار السباحة تنقلب بحلول الليل الى مقاه وبارات . ونخص بالذكر منها تلك التي كانوا يقيمونها في المجيدية حيث مدينة الطب الان .

وماذا كانوا يفعلون ؟.

ومع ان الجرداغ لايكلف نصبه في حسابات ايامنا هذه الا انها كانت كثيرة في ذلك الزمن مع الاشارة الى صعوبة المواصلات ونفقات الاقامة الليلية فيه واستقبال الضيوف لذلك كانت الجراديغ في مبدا الامر مقتصرة على القادرين على الانفاق في الثلاثينيات مع تكاثر السيارات العامة . باصات اهلية . اضافة الى العربات وشيوع اقتناء السيرات الخاصة وان كان على نطاق ضيق ازداد الاقبال على اقامة الجراديغ على ساحلي دجلة وعلى ارض الجزرة وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية صار على من يريد نصب جرداغ الحصول على الاجازة من متصرفية بغداد . محافظة بغداد الان وكانت الجراداغ في بدا الامر اماكن مفتوحة على الجو والنهر يسبحون ويتسامرون ويسكفون السمك وقد يتجاوزن الى ذلك بسهرات غير صاخبة ولما عرفت بغداد الحاكي (الفوتوغراف) صاروا ياخذونه واسطواناته معهم وسمعون الاغاني .

وما هي السهرات الجادرية ؟.

كانت منطقة الجادرية المقابلة لشارع ابو نؤاس هي الابعد . هي الابعد وكانوا يذهبون اليها عن طريق جسر مود الذي حل محله جسر الاحرار وذلك بالنسبة لسكان الرصافة او عن طريق النهر بالزوارق وكان ذلك يحدث في الليالي المقمرة فقط .

وكانوا ياخذون معهم كل ما قد يحتاجون اليه وحتى البسط والحصران الخيزران وبعض الالات الموسيقية الخفيفة وبعضهم كانوا لايذهبون الا وبصحبتهم مطرب من الهواة والمحترفين وتستمر سهراتهم الى ما بعد تناول السمك وقد صحبوه معهم والحطب الذي يسكفونه على لهبه . ثم يعودون في ساعة مبكرة من الصباح الجديد.

العمران والتجديد .

وقد زحف العمران الى منطقة الباب الشرقي واتصلت الدور الحديثة بالكرادة الشرقية وقامت المقاهي والمتنزهات والاماكن العامة على طول الساحل . وعرفنا المحلات الحديثة الخاصة بتقديم السمك الى رواد تلك المنطقة الجميلة من بغداد والتي ستكون اكثر حداثة وافضل تنظيما بعد ان تنفذ امانة العاصمة المشروع الذي اعدته لتطويرها لتتناسب مع بغداد الجديدة وتكون متناغمة مع البنايات المشيدة على الجانب الاخر من النهر .

بقي ان نشير الى ان المقاهي التي كانت موجودة على الدرب المترب قبل فتح الشارع كانت المكان اذي يلجا اليه عدد كبير من ادباء وشعراء بغداد قبل نصف قرن . بل وحتى قبل ستين عاما مع ان تلك المقاهي لم تكن غير اكواخ كبيرة ولو ذكرنا اسماء من عرفناهم لاستغرق ذلك نصف هذه الصفحة .